**الفكر السكاني القديم:** كونفوشيوس **وأفلاطون**

**مقدمة:**

إنَّ الاهتمام بدراسة الظواهر السكانية في الفكر الإنساني اهتمام قديم إذْ أنَّ دراسة السكان جذبت انتباه الكتاب والمفكرين منذ أقدم العصور، كما نشطت في الآونة المعاصرة من تاريخ الفكر الإنساني نظم فكرية متباينة من أجل فهم الظواهر السكانية وتحليلها وتفسير مشكلاتها والتنبؤ بأحوالها في المستقبل. ومن المهم معرفة وضع علم اجتماع السكان بين الديموجرافيا والدراسات السكانية وتميزه عنها من حيث الموضوع والتحليل والهدف.

**الفكر السكاني القديم:**

نعني بالفكر السكاني القديم مجمل الآراء ووجهات النظر التي أضافها أولئك المفكرون والكتاب الذين وجدوا في المراحل الأولى من تاريخ الفكر الإنساني أو ما بعدها.

تلك الآراء التي تناولت ضمن ما تناولت مختلف الظواهر السكانية بالتحليل والتفسير . وكان لهذا الفكر السكاني أثره الواضح في التمهيد لما نشهده اليوم من دراسات سكانية وديموجرافية وعلم اجتماع السكان.

1- كونفوشيوس

أعار وغيره من الكتاب الصينيين اهتمامهم **لفكرة التناسب بين مساحة الأرض وعدد السكان،** واعتقد **كونفوشيوس** (هو أول فيلسوف صيني يفلح في إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي. ولقد كانت تعاليمه وفلسفته ذات تأثير عميق في الفكر والحياة الصينية والكورية واليابانية والتايوانية والفيتنامية. ويلقب بنبي الصين). أنَّ من مسؤولية الحكومة أنْ تنقل السكان من المناطق المزدحمة إلى الأقل سكاناً، وأوضح أيضاً العوامل العديدة التي تؤثر في نمو السكان، وحصرها في عوامل نقص الغذاء والحرب، والزواج المبكر، والتكاليف المبالغ فيها عند الزواج. ودعا إلى زيادة النسل باعتباره واجب مقدس.

2- أفلاطون

كان موضوع **الحجم الأمثل للسكان** في الوحدة السياسية اليونانية ونعني المدينة الدولة، بالمعنى الذي تقوم فيه الحكومة بالمحافظة على رفاهية وأمن المواطنين من خلال ما تمارسه من إرادة في هذا الصدد، هو المحور الذي دارت حوله كل الأفكار التي تركها **أفلاطون** في مؤلفاته (الجمهورية) و (القوانين).

حيث نجد **أفلاطون** يشير في كتابه الجمهورية إلى أنه ينبغي على الحكام **أنْ يثبتوا عدد السكان** في المدينة عند حد أمثل، على أنْ يعوضوا ما فقد من جراء الأمراض والحروب ويحاولوا ألاَّ يزيد هذا العدد عن الحد الأمثل حتى تبقى الدولة في الحد المتوسط وذلك عن طريق تنظيم عقود الزواج. ويرى أفلاطون ألا تسمح الحكومة بالزواج إلا للزوجين الذين تخمن أنْ ينجبا ذرية موهوبة، هذا إلى جانب اهتمام الحكومة وإشرافها على أدق شؤون الحياة الزوجية وتنظيمها.

إذن المحور الأساس الذي تدور حوله أفكار أفلاطون المتعلقة بالسكان هي: الحجم الأمثل للسكان في الوحدة السياسية اليونانية والتي تعني عند أفلاطون (الدولة المدينة ). حيث حدد الحجم الأمثل للسكان ب 5040 مواطن دون عبيد, وذلك حتى لا تكتظ المدينة بالسكان لانَّ القوت لا يكفي أكثر من هذا العدد (كان يقسم أفلاطون السكان إلى قسمين: (الأسياد والعبيد) في حولي 350 سنة قبل الميلاد، واختياره لهذا الرقم ليس عبثاً فهو يقبل القسمة 12 و12 له معنى ديني وأسطوري يقدسه اليونان ثم إنَّ هذا الرقم (5040) يمثل عدد الوحدات السياسية التي تتشكل منها المدن اليونانية، ووصية أفلاطون إلى الحكام أنْ تبث عدد السكان في المدينة عند الحد الأمثل، يجب:

أولاً: تحديد الزواج.

ثم: تحديد النسل.

ثم: منع الهجرة إلى البلاد.

وفي نفس الوقت على الحاكم أن يرقب في حالة انخفاض عدد السكان يوصي بتشجيع على الزواج والنسل مكافئة الفرص بالمال ,أعطى الحق للتجنس اشتراكية النساء والأطفال فجميع النساء هن زوجات لجميع الرجال وهذا ما يقره الحاكم ويربى الأطفال معاً حيث لا يعرف كل طفل ما هو أبواه وأنْ لا يعرف أي شخص من هم أبناؤه , أما الذين ينجبون أطفال خارج عن هذا التقليد يصبحون أبناء غير شرعيين. ومن الوصايا التي وجهها إلى الحاكم:

أولا- طلب أفلاطون التخلص من المواليد المشوهين والمنتمون إلى سلالة الساقطة أو الهابطة .

ثانياً- يوصي بالتمارين الرياضية والخلقية للرجال والنساء.

ثالثا- التربية العلمية السياسية والبلاد يحكمها الفلاسفة لأنهم أعظم واشرف الناس ,والدولة في نظره لا يمكن أنْ تكون دولة إلى إذا حكمها فيلسوف .

**خلاصة القول**: الزواج في نظر أفلاطون يكون بالقرعة تحت رقابة ولي الأمر بهدف إنجاب نسل منتخب حيث لا يكفي تعليم الطفل تعليماً حسناً بل ينبغي أن نختار له أبوين قوين صحيحين وبهذا الخصوص يؤكد أفلاطون ما يلي:أ

أولاً « لا يتناسل الرجل و المرأة إلى إذا كانوا بصحة جيدة».

ثانياً « يطلب كل من العريس وعروسة شهادة طبية ».

ثالثا « يفضل للرجل أن ينجب بين سن 30 و 45سنة و المرأة بين 20و22 سنة ».

رابعاً «الرجل الذي بلغ سن 35ولم يتزاوج يدفع ضريبة ».ويحبذ أفلاطون أن يكتر الأقوياء من الزواج الإنجاب اكبر عدد من الأطفال، وألا يتزاوج الرجل من الأقرب لأنه يضعف النسل.

3- أرسطو

اتجه أرسطو في معالجته لموضوع السكان اتجاها **أكثر واقعية من أستاذه أفلاطون.** فمن المعروف أنَّ أرسطو هو ثاني المفكرين العظماء الذين عاشوا بأثينا نظراً لإسهامات الفلسفية والفكرية لقب ب (المعلم الأول ), وتلقى العلم على يد أفلاطون.

أما في ما يخص تناوله لموضوع السكان فقد صنف أرسطو السكان على ثلاثة أسس:

1. وحدات المجتمع: الأسرة .القرية.المدينة.
2. المهن: ويقسمها إلى طبيعية وغير طبيعية,الأولى هي الصيد والزراعة, الثانية هي الصناعة والتجارة.
3. العمر والجنس: بفرق ما بين الرجال والنساء بناء على الاستعدادات الجسمانية والعقلية واشترط أنْ يكون مواطنو الدولة جميعهم من الإغريق, يجمعون بين حيوية الشعوب الشمالية و الشعوب الجنوبية.

وعلى الرغم من أن أرسطو كان تلميذاً لأفلاطون لم يحد الحجم الأمثل للسكان على عكس أفلاطون وأكد أرسطو أن الدولة العظمى ليست هي الدولة كبيرة الحجم ورأى من الضرورة تدخل الدولة بأساليب متنوعة لتحقيق التناسب بين حجم السكان وبين مواردهم وخاصة مساحة الأرض و قدرتها على استيعاب حجم السكان ولتحقيق ذلك نرى أنَّ أرسطو يوافق على الإجهاض من اجل الحد من زيادة السكان والتخلص من المواليد المشوهة بعد الولادة. وعارض أرسطو فكرة المعسكرات التي كان يدعو إليها أفلاطون فأرسطو يشجع على المجتمع المفتوح حيث يقول«حيث يكون كل الناس إخوة كل هذا يعني انه ليس كل آخ حقيقي, ولا ينصح بالاشتراك النساء في الأطفال يكون فيها الحب مائع, فمن الصعب أنْ يشترك الناس في كل شيء » من جهة أخرى يعتبر أرسطو من رواد المفكرين الذين اهتموا بقضية تحديد حجم السكان, مؤيداً سياسة تحديد النسل وكذلك تحديد عدد السكان بالنسبة لأرسطو يجنب الفقر ثم يرى كذلك أنَّ تبرير عملية الإجهاض (يكون داخل البطن قبل أنْ يلمس الجنين الحياة) عملية ضرورية للحفاظ على الحد الأنسب من السكان وبشكل يوازي إمكانيات وقدرات الدولة وخيرات وموارد ثم يركز على العمر المفترض الذي يقود الاتحادات الزوجية وكذاك تحديد سن الإنجاب و ظروف الأمهات الصحية ثم يوصي بنظام صحي للأمهات الحوامل مع ممارسة الرياضة ونوعية الغداء .أما السن المناسب الإنجاب للرجال يصل إلى 70سنة و50سنة للنساء ولا يوصي بالزواج المبكر لان ذلك يضر بالثمرات أو الأطفال ويضر كذلك في الاعتدال في الحواس, والسن المناسب للزواج بالنسبة للنساء 18سنة و37سنة بالنسبة للرجال,.ويشير كذاك إلى أنَّ الزواج المبكر يؤدي إلى أمراض عصبية شديدة حيث يقول «الأجنة في الأرحام تتأثر بما تتأثر به الأمهات,كما تتأثر التمرات بالتربة التي تغذيها» يوصي الأمهات بالالتزام بنظام صحي في فترة الحمل وكذلك تجنب الكسل عن طريق الذهب إلى العمل يوميا إذن فأرسطو يناقش تفاصيل كثيرة تتعلق بالتنظيم الأسري.

4- ابن خلدون

ولد بتونس كان مؤرخاً رجل دولة عالم فيلسوف جغرافي, (كان موسوعياً) صاحب الكتاب (العمران البشري) ويتحدث فيه عن القضايا السكانية والاقتصادية وركز بشكل كبير على أهمية العنصر البشري السكاني واعتبره من المقدمات الأساسية لازدهار الأمم و نهضتها الاقتصادية والاجتماعية ثم أنَّ ازدهار العلوم والصناعات وتوفير الخيرات المادية والثقافية مرتبطة بالعنصر السكاني وكثافته. ويقول في ذلك: (إنَّ قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته من الغذاء، ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه، وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً، فلا يحصل إلاّ بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ، وكل واحد من هذه الأعمال الثلاثة يحتاج إلى مواعين والآلات لا تتم إلاَّ بصناعات متعددة، وهب أنه يأكله حباً من غير علاج، فهو أيضاً يحتاج في تحصيله حباً إلى أعمال أخرى أكثر من هذه، من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحب من السنبل، فلابد من اجتماع القدرة الكثيرة من أبناء جنسه، ليحصل القوت له ولهم، فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من الحاجة لأكثر منهم بأضعاف).

وما أثاره ابن خلدون من مثل يتعلق بالزراعة، يمكن تطبيقه اليوم على سائر الصناعات الثقيلة والخفيفة، وكذلك الخدمات التي تؤديها الشركات الكبيرة والمؤسسات العامة، مما يؤكد عمق أفكاره ودقة انطباقها على الواقع العملي، وتأكيد أثر زيادة السكان في تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاهية.

يذهب إلى أنَّ المجتمعات تمر خلال مراحل تطورية محددة تؤثر على عدد المواليد والوفيات في كل مرحلة إذْ يشهد المجتمع في **المرحلة الأولى** من تطوره زيادة معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات، بما يؤثر على نمو السكان ويزيد عددهم. قد ذكر في مقدمته المشهورة ( أنَّ الترف يزيد الدولة في أولها قوة إلى قوتها، والسبب في ذلك أن الناس إذا حصل لهم الملك والترف، كثر التناسل والولد). ويقرر ابن خلدون أن زيادة السكان تؤدي إلى تقسيم العمل، فيزيد الإنتاج ويزيد الدخل، ومن ثم يزيد الطلب على السلع فتنشأ صناعات جديدة، وتحصل زيادات أخرى للدخل، وهكذا).

وعندما ينتقل المجتمع إلى **المرحلة الأخيرة** من تطوره، يشهد ظروفاً ديموجرافية مخالفة تماماً، حيث ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد، ويرتفع معدل الوفيات.

ويعتقد بأنَّ الخصوبة العالية في المرحلة الأولى من تطور المجتمع ترجع إلى نشاط السكان وثقتهم ومقدرتهم أما في المرحلة الأخيرة من تطور المجتمع فتظهر المجاعات والأوبئة والثورات والاضطرابات مما يقلل نشاط السكان ويقلل من نسلهم. ويرجع ابن خلدون السبب في نقص الغذاء، وانتشار المجاعات إلى الترف والفساد والانحطاط السياسي والأخلاقي، وليس لزيادة السكان كما أدعى مالتوس الذي سيأتي ذكره لاحقاً، ولو كان الأمر كما زعم، لمات الآلاف من أبناء الصين والهند، ولما استطاعت الولايات المتحدة أنْ تحقق وفرة غذائية تفوق الحاجة الغذائية بأضعاف كثيرة.

**تعقيب**

1- أنَّ الفكر الإنساني القديم كما تجلى في كتابات كونفوشيوس وأفلاطون وأرسطو وباستثناء ابن خلدون، كان يتميز بعنايته أساساً بالعلاقة بين حجم السكان وأهداف الدولة أو المجتمع أو بالقيم المرغوب فيها داخل هذه الدولة.

2- أنَّ الفكر السكاني كما اتضح في كتابات أفلاطون وأرسطو على وجه الخصوص، كان اهتماماً غير مقصود في ذاته وإنما يدخل ضمن تخطيطهما الأمثل للصورة التي رسماها للمدينة اليونانية الفاضلة وتمثل جزءاً من تأملاتهما التي انطبعت بطابع مثالي يصور ما ينبغي أنْ يكون.

3- أنَّ الفكر السكاني القديم كما أفصحت عنه كتابات كونفوشيوس وأفلاطون وأرسطو وابن خلدون، لم يعتمد على البيانات السكانية التي تستند إلى الدراسات الإحصائية، ولم يستعن بالمؤشرات ولا بالملاحظات الإمبيريقية التي توفرها البحوث الميدانية، بقدر ما كان يعتمد على الأفكار الفلسفية أو التصورات الميتافيزيقية.